

موتيف الأم في شعر سميح القاسم ومحمود درويش

The Mother Motif in the Poetry of Samih Al-Qasim and Mahmoud Darwish

الدكتور: حامد بورحشماتي

مدرس، فرع اللغة العربية وآدابها، جامعة كيلان، كيلان، إيران.

poorheshmati@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2021/04/01 تاريخ القبول: 2021/05/22 تاريخ النشر: 2021/11/04

ملخص:

يستخدم الموتيف في الشعر العربي المعاصر لتحقيق الجماليات والنقاط المحددة للنص مستعيناً بأسلوب الإعادة والتكرار، فيقتصر على لفظة واحدة أو فكرة خاصة لتسليط الضوء على ما يدور حول النفس الإنسانية من العواطف، والانفعالات، وتحقيق نظم النص وإنارة لغته الشعرية. مع ذلك لا يتوقف الموتيف عند حصار التكرار في البنية الشعرية بل ما يهتبه، وقع انفعالي ملحوظ في القارئ حيث لا يمكن نيل زوايا هذا التأثير والتأثر إلا عبر مقارنة الموتيف واستكشاف عناصره المتكوّنة. لا ريب في أن الموتيف تقنية من التقنيات الفنية النافعة التي تغني النص الأدبي وتعين القارئ على فهمه الأفضل كما يدلّ موتيف الأم في شعر سميح القاسم ومحمود درويش على أسطح الوظائف العاطفية والواقعية ليكون لسان صدق عن الأزمات الدائمة التي رسخت في أعماق ذاكرتهما وتجاربهما في الحياة. تحاول هذه الدراسة باتباعها المنهج الوصفي - التحليلي أن تعالج أهم مظاهر موتيف الأم في أعمال الشعارين من حيث النظرة والصورة والفكرة. يدلّ مجمل نتائج البحث على أن موتيف الأم لديهما يرافق وصف المأساة وتكبير مشهد وقوعها، ولكن يجعل سميح القاسم غاية تركيزه على إظهار وظيفة الأم الإنسانية أو ردّة فعلها العاطفية في الموقف المحرج، ويستغلّ محمود درويش هذه العاطفة للعودة إلى الماضي وخاصة استرجاع طفولته الحاملة أحياناً. الكلمات الرئيسية: الموتيف، الأم، سميح القاسم، محمود درويش.

Abstract:

The motif is used in contemporary Arabic poetry to realize the beauties and specific points of the text, relying on the repetition method, and perhaps on a particular word or thought to indicate human emotions and influences, to establish the order of the text and it is enough to display the poetic language. Nevertheless, death does not stop when the repetition is besieged in the

poetic structure, but rather what concerns him, a remarkable emotional impact on the reader as it is not possible to obtain the angles of this influence and influence only through the approach of the death and exploring its constituent elements. There is no doubt that the motif is one of the most useful technical methods that helps the reader to enrich the literary text and to understand it correctly, as in the poetry of Samih al-Qasim and Mahmoud Darwish to illustrate the most brilliant emotional and realistic functions. It has to be the language of truth from the perpetual crises that have deep rooted in their minds. This research, using a descriptive-analytical approach, seeks to identify the most important signs of the mother motif in the works of two poets in order to compare the two in terms of look, image and thought. Summary of the research results suggests that the mother's motive is associated with both tragedy and scene magnification, but Samih al-Qasim focuses more on the mother's human function and emotional reactions during Crisis sets in and Mahmoud Darwish and Mahmoud Darwish take advantage of this sentiment to return to their dream childhood.

Keyword: Motif, Mother, Samih Al-Qasim, Mahmoud Darwish.

1. المقدمة:

يخطو الشعر العربي المعاصر خطوات كبيرة نحو العدول عن المدركات الحسية والتغيير اللغوي والتأثير في النفس. إنَّ الموتيف تقنية من تقنيات التأثير الحديثة وكذلك دراسة نقدية لتحليل النص الأدبي بطريقة خاصة منصبة على تكرارات تلقي الضوء على جانب من المواقف الانفعالية للأديب، مع ذلك ليس كل تكرار موتيفاً على وجه التحديد، بل لا بد أن يحمل في حناياه وظائف ودلالات مختلفة يتم تقييمها على أساس السياق النصي، ولولا ذلك لكان تكراراً لمجموعة من ألفاظ لا تضطلع بمعنى أو وظيفة في إطار النص.

من الألفاظ المثيرة التي جاء تكرارها في الشعر العربي الحديث، لفظة الأم التي أشغلت مكانة إنسانية باسقة في مختلف الفنون والآداب كشخصية فاعلة تترك أثراً كبيراً في حياة الإنسانية جمعاء؛ لأنها هي المرتبة والمعلمة الأولى للبشر، ولها فضل كبير في تنمية الأجيال السليمة وتنشئة الأسرة والمجتمع، من المستبعد جداً وجود شاعر لم يعتن بهذه الشخصية الجليلة التي قدّمت نفسها للكون وتجسّد ينبوعاً مطلقاً للحب والحنان، كما أن مختلف الأشعار تعالج شخصية الأم لكونها موضوعاً بحد ذاته يمكن تقديم الصورة الإنسانية وجسّد عطاء كاملاً لا يقدر مبلغه.

إنَّ تقديم ملامح الأم في الشعر الفلسطيني المعاصر يعبر عن سيرة الشاعر ومدى صلته بالأسرة وانتماءاته الذاتية؛ فأصبحت الأم مجالاً للتسابق في الحديث وتردّدت في وصفها أبيات شعرية ونصوص موحية باتت منهجاً يتعلّق بمنهل الأديب العاطفي. ما انفكّ هذا الموقف عند

الشعراء الفلسطينيين ولاسيّما عند سميح القاسم ومحمود درويش موقفاً إنسانياً يرتبط بالوجود القومي؛ فيمنح هويّة واضحة في تناول الهموم الرئيسة. كان سميح القاسم من رواد الشعر الفلسطيني المقاوم ويعاصر زملاءه الأجيال مثل محمود درويش على تسيير الحركة الشعرية المقاومة؛ فيتناولان في أعمالهما قضايا الأمة العربية ولاسيّما الملابس الفلسطينية من وجهة نظر إنسانية تقدّمية ويحاولان من قصيدة إلى قصيدة أن يتجاوزا حدود العمل الفني في الشعر المعاصر، حصولاً على معطيات لغوية جديدة للشعر الواقعي؛ فمن الطبيعي أن تقوى صور الشعارين ومضامينهما حيال الأمّ وتكون شديدة غليان، وثورة، وفاعلية تساوي الدفاع عن الأرض دون اختلاف عن الدفاع عن الذات.

إنّ المنهج المعتمد عليه في الدراسة وصفيّ - تحليليّ يشمل معظم دواوين الشعارين مع تطبيق المبادئ النقدية في النماذج الشعرية دون الوقوف عند رصد (الموتيف) كمياً، بل يحاول البحث أن يمارس نقد موتيف الأمّ، وتحليل صورها، والتعبير عن أساليب الشعارين الفنية في توظيفها. تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على وظائف موتيف الأمّ في شعر سميح القاسم ومحمود درويش وتنوي الإجابة عن سؤالين وهما:

ما هي ملامح موتيف الأمّ في شعر سميح القاسم ودوره في تشكيل مضمون قصائده؟
كيف تظهر وظائف موتيف الأمّ في شعر محمود درويش أيضاً على قالب الفكرة والصورة والرمز؟

أمّا حول خلفية البحث فيعدّ الموتيف مصطلحاً نقدياً جديداً في الأدب العالمي ولا تعود معرفته إلى فترة بعيدة مدى. إنّ أول من قام بالتركيز عليه كان (استيت تامسون) الأمريكي الذي عكف على إعداد معجم من الموتيفات في الأدب الشعبي في كتابه (الحكاية الشعبية) سنة 1365ق، ثمّ تليه الدراسات من (اليزابت فرنزيل) الألمانية وهما (مضامين الأدب العالمي) و(موتيف الأدب العالمي)¹. هذا ولقد كُتبت بحوث عديدة حول الموتيف في الأدبين العربي والفارسيّ مثل (بادداشتي بر بن مائه هاي تصویری (Motif) در شعر "صدای پای آب" سهراب سپهری: مذكرة على المضامين التصويرية في شعر...) كتبها (عليّ دانشور) و(سهيل إمامي) سنة 1427ق ونشرها في العدد 177 من كلية الآداب بجامعة طهران. والأخرى كتاب ألفه (حسن الشامي) سنة 1428ق وعنوانه (الموتيف والطراز؛ مفاهيم أساسية لتحديد المأثور الشعبي الشفهيّ ودراسته). أمّا الدراسة الهامة في معرفة الموتيف وتطبيقه، فما نشره (محمد تقوي) و(إلهام دهقان) سنة 1430ق في العدد 2 لمجلة (نقد أدبيّ) بجامعة تربيت مدرس في طهران وهي (موتيف چيست و چگونه شكل می گیرد؟: ما هو الموتيف وكيف يتكوّن؟).

هناك دراسات مرموقة حول توظيف المرأة في الأدب العربيّ، ولكن لم تعالج الأمّ بحوث كثيرة مباشرة مثل (الأمّ في روايات غسان كنفاني) لـ (أمل العلامة) وآخرين سنة 1418ق، و(الأمّ في

الشعر السعودي الحديث؛ دراسة موضوعيّة فنيّة) رسالة ماجستير ناقشتها (جواهر بنت عبد الله بن سند العصيمي) بجامعة أمّ القرى سنة 1424ق، ودراسة (صورة الأُمّ في الشعر العربيّ) نشرتها (فاطمة كاظم زادة) في العدد الأوّل لمجلّة (Nova Journal of Arabic Studies) سنة 1436ق، ثمّ (صورة الأُمّ في الشعر العربيّ الحديث) دراسة كتبها (ياسر عكاشة حامد) ونشرها في المجلّد الثالث والعدد الأوّل لمجلّة جامعة الأزهر سنة 1439ق.

تحسّباً للدراسات العديدة التي جرت بشأن شعر المقاومة، لم يعثر على دراسة قائمة على موتيف الأُمّ عند سميح القاسم ومحمود درويش إلّا كتاب عنوانه (معجم الموتيفات المركزيّة في شعر محمود درويش) كتبه (حسين حمزة) سنة 1433ق، والذي حاول فيه عرض معجم من جميع العناصر المكرّرة في شعر محمود درويش فحسب ثمّ رسالة (موتيفات المقاومة في الشعر الفلسطينيّ المعاصر، سميح القاسم ومحمود درويش نموذجاً) لـ (حامد بورحشمي) الذي كتبها بإشراف الدكتور (كبرى روشنفكر) وناقشها بجامعة تربيت مدرّس في طهران سنة 1436ق. تأسيساً على ما سبق، تُعتبر هذه الدراسة خطوة أخذة في الجدّة والتقدّم على وفق المميّزات التي تحظى بها وتشغّر منها الدراسات الأخرى نحو تركيزها على قضيّة جديدة في النقد الأدبيّ وهي موتيف الأُمّ وحصرها في الموازنة بين الشاعرين العملاقين في شعر المقاومة الفلسطينيّة.

2. الموتيف في الخطاب الأدبيّ:

يعدّ الموتيف (Motif) مصطلحاً نقديّاً فاعلاً في دراسة الشخصيّات والصور والعناصر المكرّرة، ويكون علامة واضحة على فهم المدلول وموقفاً ممنهجاً لمعرفة صياغة النصّ الشكليّة والدلاليّة. إنّ الموتيف «رمز من حيث هو وحدة لغويّة في عمل فنيّ أدبيّ»²، أو هو باستيعابه مجموعةً حثيثةً من العناصر السردية المتماثلة على تشييد بنية النصّ العميقة، يقع موقع الصورة لإفادة التأثير الإيحائيّ والجماليّ عليه، يتجلّى الموتيف بعامل التكرار ليلفت انتباه القارئ ويخبره بأنّ وراء هذه التكرارات غاية مكنونة لا بدّ من اعتبارها في متابعة المضامين والأساليب الشعرية. إنّ الموتيف المكرّر من أدوات جماليّة تجعل الأديب قادراً على ترتيب مواقفه وصوره؛ فقد تعيّن له في الدراسات الأدبية دور شيفرة توجّه المخاطب إلى معرفة أسلوب الأعمال الأدبية ويكون مؤشراً لتقويم المناهج التعبيرية.

يلعب الموتيف المكرّر دوراً مهمّاً في توطيد الخطاب الشعريّ وما يشهيه من ضروب الخطابات الإقناعيّة ولغة الشعر سواء كانت اسماً أو فعلاً أو جملة؛ فإنّ التكرار يجعل الموتيف نقطة مركزيّة وسمة لازمة في تعبير الشعر ومظهر لا يستقيم الشعر إلّا به بحيث لا يصلح للقصيدة أن تنسب إلى الشعرية إلّا بتوقّره ويمكن الاعتراف بأنّ «هذا التكرار يحرك أبياته ويبثّ فيها الحياة والنموّ والتدفّق»³. إنّ الموتيف يمنح المتلقّي مفتاحاً يفتح به الفكرة الكامنة بعامل التكرار الذي

يمثل أداة أدبية تملك دوراً جمالياً كسائر الأساليب البلاغية⁴، يزيد الموتيف المكرر من الجانب الغنائي للنص ما تقوم به القافية في الشعر؛ لأن الجانب الإيقاعي يبتني على التكرار مثل بحور شعرية تقليدية تتكون من المقاطع المتساوية الخالقة مناخاً موسيقياً ويحقق الانسجام والترابط في وحدات النص سواء كان في بدايته أو نهايته.

3. ملامح الأم في الشعر الفلسطيني:

لقد أوما الشعراء العرب منذ مجيئة الإسلام إلى الأم في قصائدهم، متخذين من قداستها ونقاها صوراً بديعة للفخر كما يغرمون بأن يفخروا بنسبهم ويشيدوا بأبائهم⁵، لم يغب وجه الأم عن الشعر العربي المعاصر، بل يزخر بقسمات جديدة وأسلوب بعيد عن المباشرة وقريب من واقعية الحياة وتصايفها، تحمل الأم في الشعر الفلسطيني المعاصر حضوراً واسعاً وهي قد تكون والدّة لمناضل أو شهيد أو تصبح قضية وطنية على حدة؛ فبما فيها تستطيع أن تقدّم أعلى ما في نفسها في سبيل المقاومة الداعية إلى الحرية.

لقد ازدهر توظيف الأم في الشعر الفلسطيني المعاصر خاصة من أجل نظرة المجتمع الفلسطيني إليها، والتي تقوم على تعظيم وتوقير، وصورتها في أدبه مشرقة تتسم بالاحترام وتكون أمثلة للعتاء، والحنان، والعطف ورمزاً للتضحية والإيثار⁶، تمتاز الأم في الشعر الفلسطيني بنوع من الاندماج بين الذات والموضوع أو الأنا والآخر، في الواقع لا تخبر صورة الأم في الشعر الفلسطيني عن مناخ رومسيّ حالم مفعم بالأحاسيس الفيّاضة والمشاعر النفسية فحسب بل يستغل الشاعر عاطفتها الجياشة لأغراض صادقة تنحدر من تجارب الشاعر الشخصية والاجتماعية.

هذا وقد أصبح الشعر الفلسطيني المعاصر يكشف الستار عن وجه الأم السامية والفاضلة تأكيداً على «الوظيفة الاجتماعية لشعر الأم والتي تطلّبت أن تكون الصورة الشعرية للأم وسائل للتوضيح والإقناع والتربية والتوكيد»⁷، يتعدّد ظهور المرأة عند الشعراء الفلسطينيين وتختلف آثارها في أعمالهم، غير أنّها في شعر سميح القاسم ومحمود درويش، ذات معالم كبرى تستحق أعلى قدر من الحبّ والتعلق، وتكون لهما مصدراً للإبداع الشعري؛ إذ يعاملها الشاعران في المواقف المختلفة معاملة درامية قد تصل بالقارئ إلى عالم الحقيقة الملموسة.

4. نبذة عن الشاعرين:

ولد سميح القاسم عام 1358ق في مدينة الزرقاء في الأردن، حيث استوطنت عائلته هناك بسبب حرفة والده ضابطاً في قوة حدود شرق الأردن خلال الحرب العالمية الثانية ودرس في مدارس الرامة الابتدائية والناصرة الثانوية. لقد تفتّحت موهبته في الأبداع الشعري في ريعان شبابه بمقطوعات يكتبها على دفاتر الدراسة والرسائل التي يرسلها إلى أصدقائه وما إن بلغ الثلاثين من

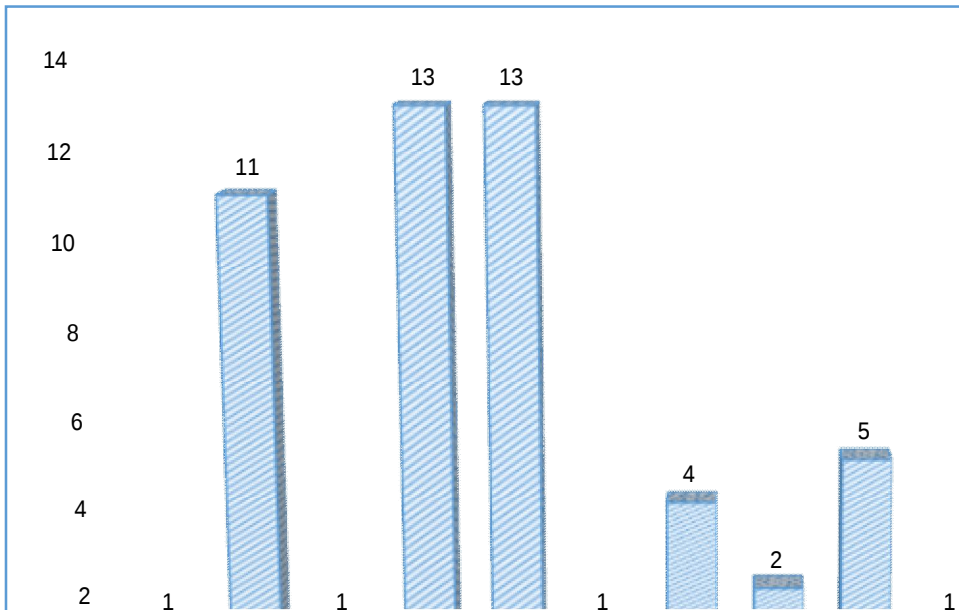
عمره حتّى أصدر ستّة دواوين شعريّة سبّبت الإشاعة لصيته العالمي⁸. كان سميح القاسم من رواد الشعر الفلسطينيّ المقاوم، الذي تعاون مع زملائه الأجيال مثل محمود درويش وتوفيق زيّاد على تسيير الحركة الشعريّة المقاومة. يتناول في شعره قضايا الأمّة العربيّة ولاسيّما الفلسطينيّة من وجهة نظر إنسانيّة تقدّميّة ويحاول من قصيدة إلى قصيدة، أن يعتبر هذه الأبعاد جميعاً. حصل على جوائز عديدة مثل جائزة "غار الشعر" من إسبانيا، وجائزتين من فرنسا لمختاراته التي ترجمها عبد اللطيف اللعبي إلى الفرنسيّة، وكذلك جائزة "الباطين" وجائزة "نجيب محفوظ" من مصر وجائزة الشعر من وزارة الثقافة الفلسطينيّة، وحصل على وسام "نجمة القدس" من الرئيس الفلسطيني محمود عباس. أصدر الشاعر خمسة وستين عملاً إبداعياً ما بين ديوان الشعر والسريّة والمسرحيّة الشعريّة، والكولاج، والرواية، والمقالات النثرية، ترجماته من القصائد إلى اللغة العربيّة وصدرت مجموعاته في سبعة مجلّات وعدة طبعات منها: "أغاني الدروب"، و"مواكب الشمس"، و"دمي على كتفي"، و"سقوط الأقنعة"، و"دخان البراكين"، و"رحلة السراييب الموحشة"...

ولد محمود درويش سنة 1360ق للميلاد في قرية البروة الواقعة شرقي عكا ونزح مع أسرته إلى لبنان وهو في السابعة من عمره وبقي هناك سنة واحدة، ثمّ عاد إلى فلسطين غير قانونيّة. أنهى محمود درويش دراسته الابتدائيّة بعد عودته من لبنان في مدرسة دير الاسد مختفياً، خشية أن يتعرض للنفي من جديد ويتّضح أمر دخوله غير قانونيّة، وعاش في تلك الفترة دون أن يملك الجنسيّة⁹. أشغل محمود درويش رئاسة رابطة الكتاب والصحفيين الفلسطينيين وقام بالتحرير في مجلة الكرمل ثمّ نال عدداً من الجوائز العالميّة، منها: جائزة لوتس عام 1969، وجائزة البحر المتوسط عام 1980، ودرع الثورة الفلسطينيّة عام 1981، ولوحة أوروبا للشعر عام 1981، وجائزة ابن سينا في الاتحاد السوفيتي عام 1982، وجائزة لينين في الاتحاد السوفيتي عام 1983. من مؤلّفاته: "عصافير بلا أجنحة"، و"أوراق الزيتون"، و"عاشق من فلسطين"، و"آخر الليل"، و"مطر ناعم في خريف بعيد"، و"يوميات الحزن العادي (خواطر وقصص)"، و"شيء عن الوطن"، و"العصافير تموت في الجليل"، و"تلك صوتها وهذا انتحار العاشق"، و"وداعاً أيّتها الحرب وداعاً أيّها السلام (مقالات)"، و"حصار لمذائح البحر"، و"تلك صوتها وهذا انتحار العاشق".

5. موتيف الأمّ في شعر سميح القاسم:

إنّ الغربة التي احتملها الكثير من الشعراء مثل سميح القاسم كانت الأمّ وثيقة من أهمّ وثائقه بالأرض وهي لوحدها وطن صغير ينطوي على مواصفات الوطن الأكبر؛ فيظهر انتماء الشاعر للوطن في تعلّقه بالأمّ بحيث إنّ صلته بأمّها لا تنافسها علاقة ولا تقدر بنت ولو كانت معها عصا سحرية. إنّ سميح القاسم ينادي الأمّ كثيراً ويأتي بها على قالب الصور الرومنسيّة؛ فيفرّغ أحزانه في

حضن الأم وقد يزاولها في المعنى الحقيقي بوصفها أمّاً له أو أمّاً للمناضلين أو أمّاً لولده محمد¹⁰. هذا وقد اعتبرها الشاعر رمزاً للأرض المحتلة بحيث يشير في بعض الأحيان إلى أن الأم هي الأرض مباشرة¹¹. يحضر موتيف الأم في عناوينه الشعرية مثل "أمّ الجليل" وكذلك يحمل مجموعة من العناصر المكررة التي يمكن الحصول عليها في أعماله الشعرية، فتشغل فيها قصيدة «حتى إشعار آخر» مرتبة أولى في حيازتها بعددها البالغ 12 مرة، ثم تلاحقها القصائد الأخرى كقصيدتي «نخلة الساحة» و«قميصنا البالي» اللتين تحتفیان بها 5 مرّات، فيعرف مدى تواجدها الشامل في الدواوين من خلال الرسم البياني التالي:



لقد تكوّنت صورة مثاليّة من الأمّ في شعر سميح القاسم وبخاصّة من الأمّ التقليديّة التي تخلو من خصائص المدنيّة أحياناً، لكنّها تحتلّ مكاناً فذاً ينمو موتيفها في طبّات الأحداث والواقعيّات اليوميّة للمجتمع الفلسطينيّ، فضلاً عن ذلك تتّصف الأمّ في شعره بالمعاناة والضغط التي تفرض على أسرته وينعكس أشدّها على دعائم العائلة ولاسيّما الأمّ، يعود مبعث التركيز على الأمّ الفلسطينيّة إلى أنّها مدرسة أولى في حياة طفلها وتشكّل قيمة أخلاقية، واجتماعيّة، ونفسية في عقلية وبسط النفوذ الرجوليّ فيه¹². قد يرسم الشاعر صورة من الأمومة والكرم في الأمّ

الفلسطينية وتوجّه نداءها نحو ولدها هو "تعال يا ولدي تعال ارضع" وهذا الرضاعة تزرع بذور الثورة والنضال في ضمير الولد:

تَعالِ يا وَلَدِي
تَعالِ ارضِعْ
فَخَفَّ لَهَا عَلَى أَرَبْعَ
وَعَرَدَ ثَغْرُ: أُمَاهُ
وَكُرَّكَرَ، حِينَ لَمْ تَسْمَعْ..
وَشَدَّ رِداءَها
وَرُؤُاهُ .. دَغْدَغَةٌ وَأَرْجُوحَةٌ -
وَرَدَّدَ عاتبا أُمَّ...¹³

إنّ ما يعرضه الشاعر الآن ينجم عن العلاقة بين الأم وطفلها، ويكشف عن ظهور التجربة الفنية متناسباً مع الموهبة الفردية والثقافة الاجتماعية التاريخية ويصل بنا إلى مناخ الأمومة والطفولة الناصعة في معانيها وألفاظها بجانب النضوج اللغوي والتربوي في الشاعر¹⁴. هنا يشدّد الشاعر على أثر شخصية الأم، ولاسيما عاطفتها الجياشة التي تمنح ولدها الصغير مشاعر الدفء والحنان؛ فتبدأ حياة الطفل بعلاقات بيولوجية مزدوجة تربطه بأمّه وتقوم في جوهرها على إشباع الحاجات العضوية كالطعام، والنوم، والمحبة، ثم تتحوّل هذه العلاقات إلى علاقات نفسية قوية توقّر له الحبّ والحنان؛ لأنّ الطفل يشعر بحالات أمّه منذ الوهلات الأولى من ميلاده ويحاوره ولكن قد يبلغ هذا الحوار عتاباً يصدر من الطفل. عندما يبتعد الطفل عن أمّه، يدرك البيئة الغريبة، ويعرف تباين الأصوات؛ فيغمره الغضب ويطلب وصلاً جديداً. هذه الصورة بديلة عن قضية سميح القاسم وابتعاده عن وطنه؛ فهو يشبه هذا الطفل المحتاج إلى الأم ورضاعتها، لكنّ أمّ الشاعر أكثر من دلالتها الإنسانية، تشير إلى خصائص الوطن.

لم يقف اهتمام الأم بولده في شعر سميح القاسم بل ربّما يرد في طرق الصمود والمقاومة عند وقوع أحداث كمصادرة أرضها، واعتقالها، وتعذيبها، وتدمير بيتها، وممارسة العنف والإرهاب مع أهلها وعائلتها، تقف الأم الفلسطينية في شعر سميح القاسم صامدة في وجه المحتلّ وتعلن التحدي وترفض الاستسلام حتّى بعد أن يسقط أبناءها الشهداء¹⁵ أو قد ترتدي الأم ملابس التضحية والفداء لأبنائها المناضلين:

تَنسِجُها مَغازِلُ الفِداءِ
عَفْوَكَ يا أُمُّ الَّتِي صارتِ بِلازَوْجٍ، بِلا أبناءٍ
عَفْوَكَ يا جَحافلاً أَشلاءَ
ما خَلَدَتْ نُصَبُّ لَها ذِكرى، ولا أسماءَ

عَفْوَكَ يَا أَكْوَاحَ صَيَّادِينَ
أَبْوَاهُهَا فِي قَبْضَةِ الرِّيحِ .. وَفِي مَطْلَبِهَا
مَا فَتَتُّ تَرْتَقِبُ النِّسَاءَ
عَلَى الزُّنُودِ صَبِيئَةً عُرَاءً¹⁶

هنا يلجّ الشاعر على وضع المرأة في المجتمع الفلسطيني ودورها في المقاومة أكثر من ذي قبل، فتصبح متكاتفة مع الرجال وترتاد معهم إلى مختلف الميادين. هذه الأم لا تعرف الحرب على قدر المقاتلين وإنما هي فقدت زوجها وأبناءها وتفاعل ما تفعله خنساوات فلسطين، فتسعى أن تراقب أطفالها وتحجب ولدها وتخاف على إصابته، لكنّها تتميز بصبرها، وتجلدها الذي بلغ مستوى جعل الشاعر يعتذر لها ويطلب منها العفو.

إنّ شخصيّة الأمّ التي يشير إليها الشاعر مراراً، تحوم حولها المأساة الفلسطينية من داخلها وخارجها، وتترك جرحاً دامياً ينفذ في هيكلها ومسيرتها¹⁷. يجد الشاعر شبه وقوع الأحداث المؤلمة التي يعتبرها لأمتها، في التاريخ ولاسيما في حياة هاجر التي كانت أمة عند ملك مصر. يجعل هذه الأمّ في بؤرة الأزمة التي تعيشها ويدعوها إلى البقاء في الوطن:

يَا أُمَّ يَتِيٍّ وَخَوْفٍ وَفَقْرٍ
إِلَى أَيِّ بَرٍّ؟ وَمِنْ أَيِّ بَرٍّ؟
إِلَى أَيْنَ يَا أُمَّةَ اللَّهِ «هاجر»
وَحَلَفَ الْفَضَاءُ الْمَحَاصِرَ
فَضَاءُ مَحَاصِرَ
إِلَى مِصْرَ. إِلَى مِصْرَ
بَارَكْنَا اللَّهَ يَا أُمَّ قَلْبِي وَدَرْبِي
وشعبي
وباركني الله

من مصر، في مصر¹⁸

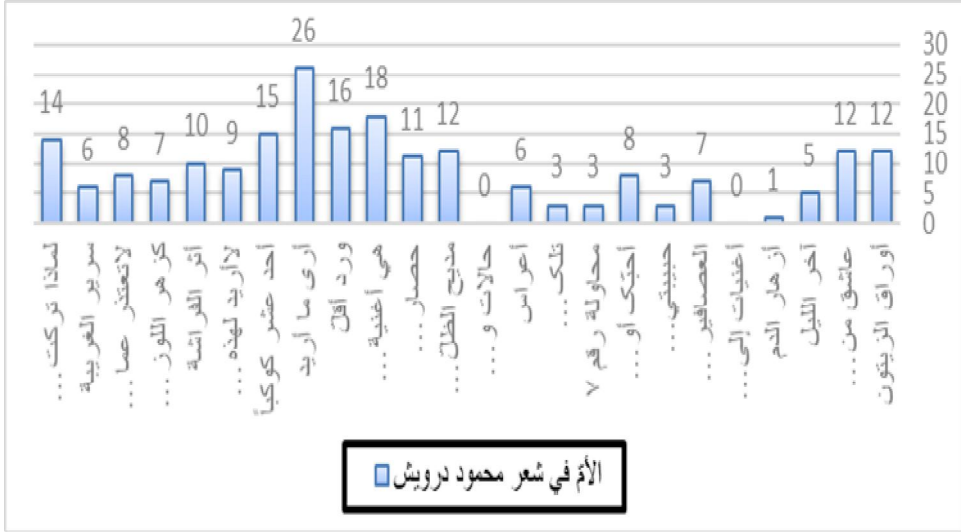
تعدّ هذه الكلمات المندفعة الصادرة من الأمّ لهيباً ناتجاً عن فيضان إحساس الشاعر بالأحقاد وإيمانه بأنّ الخلاص لا سبيل إليه إلّا بالصمود والمقاومة. تنبع هذه الصورة من النزعة الواقعيّة التي قد غلبت عليه في الخمسينيات وتتجسّد في تصوير مشاهد الحياة اليوميّة وجوانب من معيشة الأسرة الفقيرة¹⁹، وبخاصّة يتمّ فيها التركيز على الأمّ الفلسطينية والأمّ المصرية اللتين تتّصفان بأوصاف نحو اليتيم والخوف والفقر. إنّ اليتيم يرافق الخوف والفقر، ويكون مبعثاً للأسى والاضطراب؛ فيستغلّ الشاعر هذه الأوصاف لإكمال ميسم البطولة في الأمّ وإعادة تكوينها في ظلّ حالات اليتيم، والخوف، والفقر. يفسح الشاعر مدى ملابسات الأمّ الحرجة عبر تشبيهها بموقف

هاجر التي ترتبط قصّته بالتراث القديم ليشدّد على سعة آلام الأم عن طريق الإشارة إلى هموم هاجر في ظلّ المجتمع المصريّ.

6. موتيف الأم في شعر محمود درويش:

يتمثّل موتيف الأم عند محمود درويش في شخصيّة حسنة تحتلّ ضروب المعاناة من التشردّ والقهر والاضطهاد؛ فلا تأخذ عنده كياناً واضحاً ولا تنحصر في تجاربه العاطفيّة على وجه التحديد بل تستعار من الهواجس الكبرى وتمتزج بتجربة من التجارب الإنسانيّة الشاملة، تنصهر عواطف الشاعر الذاتيّة في العواطف الاجتماعيّة التي تخصّ الأرض المحتلّة، ليست هذه النزعة لدى الشاعر نزعة طريفة بل يُعرف مثلها بكثافة عند معظم الشعراء في العصر الحديث لما يوجد فيها من مظاهر واقعيّة وإيحائيّة تتلخّص في الأمومة²⁰، غير أنّ هذه الأصداء الاجتماعيّة في معرفة موتيف الأم لا تحوله دون العناية بذاتيّة أواصره مع أمّه وبخاصّة حين يُبتلى بالنقص العاطفيّ عند موقف الاغتراب، يسترجع الماضي ويقول: «علاقتي مع أمّي في الطفولة، كانت علاقة ملتبسة، كانت عندي عقد، كنت أشعر أنّ أمّي تكرهني لأنّها كانت دائماً تعاقبني وتعتبر في الولد الشقيّ، المسؤول عن أيّ شغب في البيت وفي الحارة»²¹. يطبّق الشاعر وظائف موتيف الأم ويعرض منها صوراً مبتكرة لم يسبقه إليها أحد، وذلك أنّه يشدّد على قيمتها ومكانتها بدور شاعر فلسطينيّ ينعم بالصور الشعريّة الناضجة والكنوز اللغويّة الفدّة.

لم يعنّ محمود درويش بتكرار الأم في دواوينه التسعة التي أصدرها في نهاية عام 1397ق على قدر احتفائه بها بعد عام 1400ق إلى 1404ق حتّى يلاحظ أنّه تركها جانباً في ديوانيه "هي أغنية.. هي أغنية" و"ورد أقلّ"، في الواقع تجلّو صورة الأم لدى الشاعر في وطنه فلسطين عبر التشديد على حدث مشترك بينهما، على غرار ديوان "أوراق الزيتون" و"أعراس"، فتوحى بالرموز المتواليّة التي بعضها يدلّ على ذاتيّة موتيف الأم، والآخر يعود إلى الزوايا الاجتماعيّة التي يعيشها الشاعر. تحسّباً لما تقدّم، يستخدم محمود درويش في شعره مجموعة من العناصر المكرّرة للفظّة الأم كما يشير إليها الرسم البيانيّ التالي معتمداً على حضورها في دواوين الشاعر:



كما يبدو أنّ الشاعر استخدم لفظة الأمّ في شعره كثيراً حيث تحتل قصيدة «أرى ما أريد» مكانة أولى بين القصائد الأخرى. تزهو الأمّ في عناوين محمود درويش الشعرية أيضاً كقصيدة "إلى أمّي" في ديوان "عاشق من فلسطين"، والتي على الرغم من طلاقة الألفاظ وبساطتها، تمتلك ميسماً إنسانياً يجمع بين الألفاظ السلسة والمضامين الدقيقة، والأخرى قصيدة "في بيت أمّي" التي تتابع القصيدة السالفة في معالجة هذا المدلول. تحمل الأمّ في شعر محمود درويش هاجستين؛ الأولى تنجح إلى أوصاف شخصية الأمّ التي تشمل كافة الأمّهات؛ فهي تمتدّ دلالتها وتتنسّع وظائفها لتضمن أمّ الجميع، والثانية تميل إلى الأبعاد الرمزية التي يبتعد فيها الشاعر عن الخطاب المباشر إلى تعابير ثنائية المعنى.

تقبل الأمّ في شعر محمود درويش رمزاً لحنان لا يمكن أن تساويها حبيبة أخرى. إنّ الأمّ تذكّر الشاعر بطفولته الزاهرة التي مضت بأيام موحية مشحونة بالنظرة الإنسانية الشفافة، لأنّها نوع من الاسترجاع الزمني (Retrospection). في التعبير السردّي على التأثير المنشود في القارئ، كما يمكن العثور على نماذج من هذه الوظائف في قصيدته "إلى أمّي" التي تلازم فيها العودة إلى الأمّ استرجاع زمن الطفولة، ذلك الزمن الذي يتميّز الشاعر عودته من جديد:

أَجِنُّ إِلَى خُبْرَأمِي
وَقَهْوَةِ أمِي
وَمَلْسَةِ أمِي..
وَتَكْبُرِيّ الطُفُولَةِ
يَوْمًا عَلَى صَدْرِيَوْم
وَأَعشَقُ عُمْرِي لِأَنِّي

إِذَا مُتُّ

أُحْجِلُ مِنْ دَمْعِ أُمِّي²²

تظهر هذه الدفقة الشعورية في عملية الإفضاء لمجموعة من التفاعلات الداخلية التي يستعين طولها بالحضور الخارجي للأم وطبيعة الإفضاء التي تنعكس على البنى السياقية كاعتماد النص على بؤرة النص تعني الأم. هنا تتردد لفظة الأم أربع مرات، قائمة على عرض مستويين من التعبير على صعيد واحد: المستوى الأول تعبير تقريرِي يُطلع على تواجد الأم ودورها في حياة الشاعر، والثاني مستوى تأسيس يجعل حضورها جلي الأثر في الحياة إطلاقاً. يكاد الشاعر يهرب من هذه الوظيفة في استخدام موتيف الأم ليزيد فيها من فاعلية إنتاج مادة التكوين للخبز والقهوة كما يقول «أحنّ إلى خبز أمي وقهوة أمي» وفي المواصلة إنتاج مادة البنية العاطفية في تعبير «لمسة أمي».

قد يقوم الشاعر بالمبالغة في عرض دواهي الأم وهمومها عند حديثه عن الكوارث المحزنة التي وقعت في فلسطين، على سبيل المثال يصوّر بنتاً صغيرة ترى عن قرب احتراق أمها، عندئذ تتشارك الطفلة مع أمها في تدوّق عمق المعاناة والقلق:

الطِفْلَةُ احْتَرَقَتْ أُمُّهَا

أَمَامَهَا..

احْتَرَقَتْ كَالْمَسَاءِ

وَعَلَّمُوَهَا: يَصِيرُ اسْمُهَا

فِي السَّنَةِ الْقَادِمَةِ

سَيِّدَةُ الشُّهَدَاءِ²³

هنا ينبثق موتيف الأم عن توجّه الشاعر إلى الحادثة الالافنة التي يصفها للشخصية، لأنّ الموتيف «يرتبط بالإلحاح على قضية تشغل الذهن مثل ضرب من الحادثة»²⁴. تقع هذه الحادثة عبر تركيز الشاعر على المشهد وردّة فعل الشخصيات وهي تشمل الآن الأم وطفلتها. يستفيد الشاعر في هذا المقطع من احتراق الأم ليحقّق لها رمزاً لضياح فلسطين ويستغلّ الطفلة تمثيلاً لنفسه بوصفه من يشاهد الدمار في وطنه، يشبّه الشاعر احتراق الأم بصورة المساء الذي يدلّ على شفق الشمس ليوسّع مدى المأساة والاغتراب في هذا المشهد، في نهاية المطاف يعظّم شأن الطفلة ويعتبر نضالها طريقة دينيّة مقدّسة عن طريق تسميتها بسيدة الشهداء.

إنّ صورة الأم التي يعرضها الشاعر في شعره، صورة سماوية ذات ملامح تشخيصيّة تنجم عن خياله المرهف:

أَنَا مِنْ هُنَاكَ. أَعِيدُ السَّمَاءَ إِلَى أُمِّهَا حِينَ تَبْكِي السَّمَاءَ عَلَى أُمِّهَا

وَأَبْكِي لِتَعْرِفُنِي غَيْمُهُ عَائِدَةً²⁵

هنا يخلق الشاعر صورة الأم خاضعة للسماء ويجعلها تبكي على بعدها، تمثيلاً لمن يبتعد عن موطنه ويحنّ إليه. هذا التعبير لا يقتصر على إفادة المعنى فقط بل يتزوّد بالإيحاء والدلالة الرمزية أيضاً؛ فتبكي السماء على فقدان الأم (فلسطين) ثمّ يحين دور الشاعر ليلعب دور بطل سرديّ يحاول إعادة الخصب إلى موطنه كما أنّ تعبيره عن «يبكي الشاعر لتعرفه غيمة» يدلّ على هذا المبتغى وينصّ عليه.

النتائج:

1. يتنوّع توظيف موتيف الأم في شعر سميح القاسم ومحمود درويش وتختلف تأثيراته عندما بأشكال مختلفة تمتزج فيها صور الأم الحسيّة بصورها المعنويّة وتنعم بمبادئ التضحية والمقاومة المستميتة.
2. يُعرف موتيف الأم في شعر سميح القاسم غالباً في غضون الصور الرومنسيّة والعاطفيّة، ولو أنّها قد تأخذ أبعاداً رمزيّة واسعة؛ فتصبح الأم عنده وطناً صغيراً يحمل معظم خصائص وطن حقيقيّ.
3. يتجسّد موتيف الأم عند محمود درويش أيضاً في وطن يتكبّد ضروب الدواهي والمصاعب، وهي لا تأخذ دوماً كياناً واضحاً بل تتسلّم تجربة إنسانيّة عميقة تجلو فيها عواطف الشاعر الشخصيّة والعامة.
4. يعرض سميح القاسم موتيف الأم هادفاً إلى إجلاء مدى عاطفتها الجياشة عند موقف المأساة والكارثة، ولاسيّما لإظهار العلاقة الحميمة التي تملكها الأم مع طفلها الصغير، لكنّها أكثر من وظيفتها الإنسانيّة تحمل علامات الأرض على وجه التحديد. يعالج محمود درويش عواطف الأم عند موقف استرجاع تجاربه الشعوريّة التي يستلهمها منذ طفولته الحاملة.
5. تتعرّض الأم في شعر سميح القاسم لمعاناة الاعتقال والتعذيب والآلام الكثيرة، لكنّها تمتاز عن الشخصيات الأخرى بمراعاة الصبر والتضحية والفداء. تتبرّد دلالة الأم في شعر محمود درويش على مواقف الحزن والمأساة أيضاً، لكنّها تمتاز في شعره بالتركيز على توسعة المشاهد والمواضيع المأساوية التي أحيطت بها حيث إنّها تقع جزءاً منها دون الاعتماد على دورها الخاصّ ومعاملاتها في الأحداث المختلفة كما تقدّم في شعر سميح القاسم.
6. يكتمل موتيف شخصيّة الأم في شعر سميح القاسم حين يزوّد الشاعر بمواصفات البطولة والشجاعة، ولكن يسعى محمود درويش أن يزيد من خصائص مقدّسة تزيد من مكانتها الإنسانيّة بين الشخصيات الأخرى.

الهوامش والإحالات:

- ¹ - محمد تقوى 1 و إلهام دهقان 2، موتيف جيست وچگونه شكل مى گيرد، فصلنامه تخصصي نقد ادبي، 1430ق، ش8، ص 9و8.
- ² - نورثروب فراي، تشريح النقد؛ محاولات أربع، ترجمة محمّد عصفور، 1411ق، الأردن: منشورات الجامعة الأردنية، ص 484.
- ³ - عزّ الدين علي السيّد، التكرير بين المثير والتأثير، ط2، 1406ق، بيروت: عالم الكتب، ص140.
- ⁴ - إبراهيم أويس، ظاهرة التكرار في ديوان الشيخ محمّد الناصر بن محمّد المختار؛ سبحات الأنوار من سبحات الأسرار، رسالة ماجستير، 1434ق، ماليزيا، جامعة المدينة العالمية، ص30.
- ⁵ - أحمد محمّد الحوفي، المرأة في الشعر الجاهليّ، ط2، 1382ق، بيروت: دار الفكر العربيّ، ص79.
- ⁶ - جمعة الفاخري، صورة الّأمّ في الشعر الشعبيّ الليبيّ، 1435ق، ليبيا: مكتبة التراث الشعبيّ، ص6.
- ⁷ - حامد صالح جاسم، صورة الّأمّ في الشعر العربيّ الحديث، مجلّة ديالي، 1428ق، ع26، ص 412.
- ⁸ - نبيه القاسم، سميع القاسم: مبدع لا يستأذن أحدا؛ دراسات في إبداعه، 1434ق، الجزائر: دارالهدى للطباعة والنشر، ص3.
- ⁹ - روبرت كاميل، أعلام الأدب العربيّ المعاصر، سير وسيرة ذاتية، 1416ق، بيروت: الشركة المتّحدة للتوزيع، ص594.
- ¹⁰ - سميع القاسم، الأعمال الكاملة للشاعر سميع القاسم، ج2، 1413ق، الكويت: دارسعاد الصباح، ص561.
- ¹¹ - المصدر نفسه، ص402.
- ¹² - مصطفى حجازي، التخلّف الإجتماعي مدخل إلى سيكولوجيّة الإنسان المقهور، ط9، 1426ق، المغرب: الدار البيضاء، ص204.
- ¹³ - سميع القاسم، الأعمال الكاملة للشاعر سميع القاسم، ج1، 1413ق، الكويت: دارسعاد الصباح، ص203.
- ¹⁴ - حامد صالح جاسم، صورة الّأمّ في الشعر العربيّ الحديث، مجلّة ديالي، 1428ق، ع26، ص 385.
- ¹⁵ - سميع القاسم، الأعمال الكاملة للشاعر سميع القاسم، ج3، 1413ق، الكويت: دارسعاد الصباح، ص405.
- ¹⁶ - المصدر نفسه، ج1، ص489.
- ¹⁷ - حسان رشاد الشامي، المرأة في الرواية الفلسطينية 1965-1985، 1418ق، من منشورات اتّحاد الكتاب العرب، ص74.
- ¹⁸ - سميع القاسم، الأعمال الكاملة للشاعر سميع القاسم، ج3، 1413ق، الكويت: دارسعاد الصباح، ص451و452.
- ¹⁹ - عبدالقادر القطّ، في الأدب العربيّ الحديث، 1422ق، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ص57و58.

- 20- حامد صالح جاسم، صورة الأمّ في الشعر العربيّ الحديث، مجلّة ديالي، 1428ق، ع26، ص174.
- 21- شاكّر النابلسي، مجنون التراب: دراسة في شعر وفكر محمود درويش، ط1، 1407ق، بيروت: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ص196.
- 22- محمود درويش، محمود درويش الديوان الأعمال الأولى، ج1، ط1، 1426ق، بيروت: رياض الرئيس للكتب والنشر، ص106.
- 23- المصدر نفسه، ج2، ص87.
- 24- كبرى روشنفر1 و حامد بورحشمي2، موتيف النخلة والزيتونة في شعر سميح القاسم، مجلّة إضاءات نقدية، 1436ق، س5، ع20، ص102.
- 25- محمود درويش، محمود درويش الديوان الأعمال الأولى، ج3، ط1، 1426ق، بيروت: رياض الرئيس للكتب والنشر، ص113.

قائمة المصادر والمراجع:

أ. الكتب:

- 1- أحمد محمّد الحوفي، المرأة في الشعر الجاهليّ، ط2، 1382ق، بيروت: دار الفكر العربيّ.
- 2- أمل العلامة1 و محمّد محسين أبو ريّان2 و سعاد كراجه3 و ثابت البراذعية4، الأمّ في روايات غسان كنفاني، 1418ق، فلسطين: مركز السنابل للدراسات والتراث الشعبيّ.
- 3- جمعة الفاخري، صورة الأمّ في الشعر الشعبيّ الليبيّ، 1435ق، ليبيا: مكتبة التراث الشعبيّ.
- 4- حسان رشاد الشامي، المرأة في الرواية الفلسطينية 1965-1985، 1418ق، من منشورات اتّحاد الكتاب العرب.
- 5- روبرت كاميل، أعلام الأدب العربيّ المعاصر، سير وسيرة ذاتيّة، 1416ق، بيروت: الشركة المتّحدة للتوزيع.
- 6- سميح القاسم، الأعمال الكاملة للشاعر سميح القاسم، ج2 و3 و4، 1413ق، الكويت: دارسعاد الصباح.
- 7- سميح القاسم، ديوان سميح القاسم، ج1، 1407ق، بيروت: دار العودة.
- 8- شاكّر النابلسي، مجنون التراب: دراسة في شعر وفكر محمود درويش، ط1، 1407ق، بيروت: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر.
- 9- عبدالقادر القطّ، في الأدب العربيّ الحديث، 1422ق، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
- 10- عزّ الدين علي السيّد، التكرير بين المثير والتأثير، ط2، 1406ق، بيروت: عالم الكتب.
- 11- محمود درويش، محمود درويش الديوان الأعمال الأولى، ج1 و2 و3، ط1، 1426ق، بيروت: رياض الرئيس للكتب والنشر.
- 12- مصطفى حجازي، التخلّف الاجتماعيّ مدخل إلى سيكولوجيّة الإنسان المقهور، ط9، 1426ق، المغرب: الدار البيضاء.
- 13- نورثروب فراي، تشريح النقد؛ محاولات أربع، ترجمة محمّد عصفور، 1411ق، الأردن: منشورات الجامعة الأردنيّة.

- 14- ياسر عكاشة، صورة الأمّ في الشعر العربي الحديث، مجلّة جامعة الأزهر، 1439ق، ج3، ع1، ص.ص 111-33.

ب. المقالات:

- 15- حامد صالح جاسم، صورة الأمّ في الشعر العربي الحديث، مجلّة ديالي، 1428ق، ع26، ص.ص 371-418.
- 16- حسن الشامي، الموتيف والطرّاز: مفاهيم أساسيّة لتحديد المأثور الشعبيّ الشفهيّ ودراسته، مجلّة الخطاب الثقافيّ، دراسات، العدد الثاني، 1428ق، ص.ص 58-7.
- 17- على دانشور¹ و سهيلا امامي²، يادداشتی بر بن مایه های تصویری (موتیف) در شعر صدای پای آب سهراب سپهری، مجلّة ادبیات وعلوم انسانی دانشگاه تهران، 1427ق، شماره1، ص.ص 117-131.
- 18- کبری روشنفر¹ و حامد پورحشمي²، موتیف النخلة والزیتونة في شعر سمیح القاسم، مجلّة إضاءات نقدیّة، 1436ق، س5، ع20، ص.ص 97-118.
- 19- محمد تقوی¹ و إلهام دهقان²، موتیف چيست و چگونه شكل می گیرد، فصلنامه تخصصي نقد ادبي، 1430ق، ش8، ص.ص 32-7.

ت. الرسائل والأطاريح:

- 20- إبراهيم أوبس، ظاهرة التكرار في ديوان الشيخ محمد الناصر بن محمد المختار: سبحات الأنوار من سبحات الأسرار، رسالة ماجستير، 1434ق، ماليزيا، جامعة المدينة العالمية.
- 21- جواهر بنت عبد الله بن سند العصيمي، الأمّ في الشعر السعودي الحديث؛ دراسة موضوعيّة فنيّة، أطروحة دكتوراه، إشراف سعد منصور، 1424ق، جامعة أمّ القرى، السعودية.